سلسلة

تزكية النفوس

لفضيلة الشيخ:

محمد سيد حاج

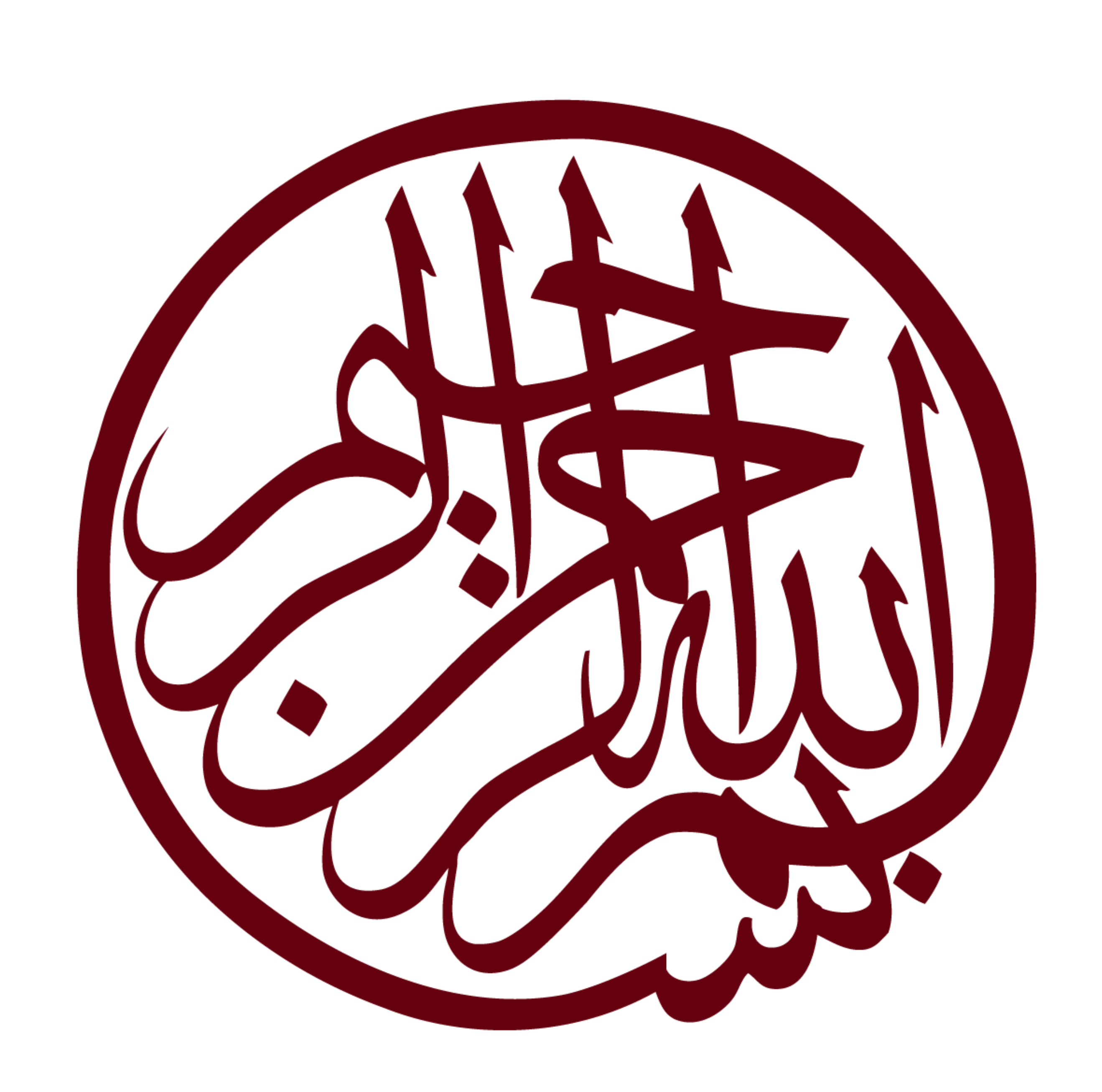
رحمه الله

تقريظ فضيلة الشيخ:

د.عبد الحفيظ العدسي






بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة ميراث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الجمع والدين.

أما بعد:

فقد وفقنا الله – سبحانه وتعالى – لجمع هذه المادة لفضيلة الشيخ محمد سيد حاج -رحمه الله- وتفريغها من مادة صوتية إلى مادة مقروءة حتى يسهل لكثير من الناس مدارستها والإستفادة منها ، وقد تم تعديل وحذف بعض الكلمات التي تكون باللهجة (الدارجية) وتعديل بعضها إلى اللغة العربية ؛ حتى يتناسب مع طريقة الكتب؛ وهذا الكتاب صدقة جارية للشيخ - رحمه الله- .

ميراث



تقريظ الشيخ الدكتور/
عبد الحفيظ العدسي حفظه الله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله الأمين صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه :

(لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي على الحقِّ حتَّى يأتيَها أمرُ اللهِ)

وهذه الطائفة المنصورة والفرقة الناجية تشمل طوائف الأمة من العلماء والعباد والزهاد والمتصدقين والمجاهدين وغيرهم من أهل الخير والصلاح

ومن أكرم الله به بلادنا من أهل العلم فضيلة الشيخ محمد سيد حاج رحمه الله والذي سخر عمره القليل للدعوة والإرشاد والتدريس ونفع الله به ونحسب أن الله جعل له قبولاً في بلادنا وغيرها

وقد خلف الشيخ رحمه الله إرثًا عظيمًا من الدروس النافعات والعلوم الطيبات ما زال الناس ينهلون منها ويستفيدون

ومن تيسير الإستفادة من علم الشيخ رأى الإخوة في ميراث للعمل الدعوي تفريغ بعض محاضرات الشيخ وطبعها نشراً للفائدة

وحفظًا لهذا العلم من الضياع عمل إخواننا فيه بعد تفريغه تصرفًا يسيراً في بعض الكلمات والتعابير الدارجة التي اقتضى عمل الطبع حذفها والإستعاضة عنها بما يستقيم به الكلام، وهذه جادة مسلوكة في مثل هذا العمل والله أسأل وبإسمائه الحسنى أتوسل أن يجري ثواب هذا العمل على الشيخ في قبره وأن يخلفه في عقبه بخير

كما أسال الله أن ينفع به المسلمين خاصةً أن البداية جاءت بمحاضرات مهمة (سلسلة تزكية النفوس) ولا تخفى أهمية هذه المواضيع في هذه الحقبة التي نحياها

كما أشكر جميع من أعان على هذا العمل وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته..

كما نشكر لأهل الشيخ د. حسن جيب الله تعاونهم في نشر إرث الشيخ..

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

وكتبه د.عبدالحفيظ علي عبدالرحمن العدسي

عميد كلية جبرة العلمية


صبر آت



مقدمة الشيخ رحمه الله

الحمد لله ملْءَ السموات والأرض وملْءَ ما بينهما وملْءَ ما شاء الله من شيءٍ بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لله عبد اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

أحمدك ربي حمد الشاكرين الذاكرين حمداً يليق بجلالك وبعظيم سلطانك أثنيت على نفسك عنت الوجوه لنور وجهك وعجزت العقول عن إدراك كنهك ودلت الأدلة والفطرة على امتناع مثلك وشبهك موصوفًا ربّي بصفات الكمال منعوتًا بنعوت الجلال منزهًا عن الشبيه والنقائص والمثال لا تدركه الأفهام ولا تبلغه الأوهام ولا يشبه الأنام حي لا يموت وقيوم لا ينام ولا ينبغي له أن ينام لو كشف الحجب عن وجهه لأحرقت سبحات وجهه ما امتد إليه بصره جل وعلا ،

اللهم تتابع برك واتصل خيرك وكمُل عطاؤك وتمت نوافلك وعمت فواضلك وعز سلطانك وبر قسمك وجل ثناؤك وعظم جاهك وتقدست أسماؤك فلا إله غيرك ، في السماء ملكك وفي الأرض سلطانك وفي البحر عظمتك وفي الجبال قوتك وفي الكون سطوتك وفي الخلق قدرتك وفي الشرائع حكمتك وفي الجنة رحمتك وفي النار سخطك وفي كل شيء آية دالة لك فيا عجبا ! كيف يعصى الإله أم كيف يجحده جاحد وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد وقفنا ببابك يا ذا الملك وزرنا رحابك والملك لك وجئناك نطوي قفار السهاد فما خاب ياربِّ من أمّلك.

إن سلاطين الأرض أغلقوا الأبواب و وضعوا الحجاب وردوا حاجات الطلّاب وبابك ربي مفتوح ونوالك ربي ممنوح وخيرك ربي يغدو ويروح فيا كريمـًا الكرماء بخلاء عند جودك ، ويا قويـًا الأقوياء مهازيل في قيودك ، ويا قاهرا النواصي في قبضات جنودك ، يا من أجبت دعاء نوح فانتصر وحملته في فلكك المشحون يا من أحال النار حول خليله روح وريحان بقولك كوني يا من أمرت

الحوت يلفظ يونس وسترته بشجيْرة اليقطين يا ربِّ إنا مثله في كربة فارحم عباداً كلهم ذو النون يا من أنجى من النار الخليل ومن الذبح إسماعيل وأيد اليتيم بجبريل ودمر أبرهة بالفيل ومزق الغزاة بطير أبابيل ألسنتنا سبحت في علاك ورؤوسنا ما سجدت لسواك أنت ترانا ولا نراك فلا نعبد إلا إياك.

يا من يرى مد البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل ويرى نياط عروقها في نحرها والمخ من تلك العظام النحل ويرى ويسمع ويرى ما دونها في قاع بحر ذاخر متجلجل ويرى خرير الدم في أوداجها متنقلاً من مفصل في مفصل ويرى ذنوب عباده في ظلمة من فوق عرش للمليك الأول أمْننٌ علينا بتوبةٍ أمح بها ما كان منا في الزمان الأول ، ثم الصلاة والسلام على عبد الله المصطفى وعلى رسول الله المجتبى وعلى نبي الله المرتضى وعلى أصحابه وآله ومن بهم اهتدى.

التزكية

فإذا كانت العلوم نظرية فالتزكية تسعى إلى إنزال العلوم على أرض الواقع ممارسة ولذلك يمكن أن ألخص الحديث عن أهمية التزكية في الآتي:

تعريفها:

مادة زكى يزكي تقوم على النقاء والطهارة والسمو ومن ذلك قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها) (الشمس:٩)

فهي تتجه نحو النفس تطهيراً لها ولعلها تعني ثمرة العلم فأنتم تتعلمون علومًا كثيرة في الإعتقاد الصحيح والفقه السديد ولكن هذه العلوم حتى يستفاد منها الفائدة الصحيحة لابد من تزكية النفس وتطهيرها فهي تعني النماء والزيادة ومن ذلك قول

العرب زكت الناقة إذا ما أرضعت فصيلها وإرضاع الفصيل يسمى زكاة ومن ذلك المال المدفوع تطهيراً للنفس يسمى زكاة كما قال تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (التوبة : ١٠) وبعثة النبي عليه الصلاة والسلام ورسالته تنحصر حول هذا الهدف تزكية النفس يعني خلاصة الدين أن تصفو النفوس وأن تسمو الأرواح يقول الله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (الجمعة : ٢)

ويقول تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

(آل عمران : ١٠٦)

فالتزكية والتطهير قضية مهمة.

أهمية التزكية

الأمر الأول:

العلم الشرعي : هو أساس الإصلاح ،ومنطلق التغيير ولكن العلم الشرعي لابد أن يكون معه عمل وأود أن أسأل سؤالاً بكل صراحة أين الخلل في الأمة ؟ هل في العلم أم في العمل ؟ العلوم متوفرة مع كثرة المنتسبين إليها ولا سيَّم العلوم الشرعية ولكن الضعف في الممارسة والسلوك وبذلك تصبح قضية التزكية قضية مُلحّة وهامة فكيف نعالج قضية المفارقة بين العلم والعمل ولذلك تأتي أهمية التزكية التي تعني كيفية التوافق بين العلم والعمل بين النظري المعلوم وبين العمل الواقع

المعمول به، نشعر بأن هنالك مفارقة كبيرة لذلك نحن بحاجة إلى تطهير أنفسنا وتزكيتها.

ثانيًا:

أهمية التزكية: أننا نعيش في زمن الفتن والمغريات وكثرة وارد الشهوات و الملاهي والصوارف فنحتاج إلى التزكية لأنها خط الدفاع الأول للإستقامة والإستمرار فيها، ففرق بين معرفة الإستقامة و ممارسة الإستقامة و بين الإستقامة على الإستقامة يعني الثبات على الإستقامة ؛ هذه ثلاث صور أُولها الذي يعرف الإستقامة بأنها معرفة الحلال والحرام وهذا الشيء منطبع في ذهنه ثانيها طبَّق معنى الإستقامة وثالثها الذي يعلم ويطبق ولكنه يشعر ببعض الاضطراب وعدم الثبات و هذا مما نعانيه لذلك يحتاج الناس إلى التزكية.

ثالثًا: ندرس مادة التزكية لأنها خلاصة الدين ؛ و السلوك القويم والممارسة الصحيحة للإسلام تحتاج إلى التزكية لأنها تأخذك من الإطار النظري إلى الإطار العملي والتطبيقي وقد شغلت هذه القضية السلف الصالح فألّفوا فيها

كتبًا ومصنفات، فألف الذهبي زغل العلم ومعنى زغل العلم أي آفته وألّف الآجري أخلاق العلماء وألّف السخاوي زيل التبر المسبوك وألّف البغدادي أدب الفقيه والمتفقه وألّف النووي أدب العالم والمتعلم وألّف الشوكاني نهاية الإرب في أدب الطلب وألّف السمعاني أدب السامع والمتكلم ؛و كل هذه الكتب الغرض منها أن يستقيم الإنسان على العلم و أنتم الآن في طريق العلم الشرعي لذا ينبغي عليكم تنزيله إلى أرض الواقع كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) (الصف:٢)

وقال تعالى: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (البقرة ٤٤) و في الحديث أن (أنَّ اللهَ تبارَك وتعالى إذا كانَ يومُ القيامةِ ينزلُ إلى العبادِ ليقضيَ بينَهم وَكلُّ أمَّةٍ جاثيةٌ فأوَّلُ من يدعو بِه رجلٌ جمعَ القرآنَ ورجلٌ يقتَتِلُ في سبيلِ اللهِ ورجلٌ كثيرُ المالِ فيقولُ اللهُ للقارئِ ألم أعلِّمْكَ ما أنزلتُ علَى رسولي قالَ بلى يا ربِّ قالَ فماذا عملتَ فيما عُلِّمتَ قالَ كنتُ أقومُ بِه آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ فيقولُ اللهُ لَه كذَبتَ وتقولُ الملائِكةُ كذَبتَ ويقولُ له اللهُ بل أردتَ أن يقالَ فلانٌ قارئٌ فقد قيلَ ذلكَ ويؤتى بصاحبِ المالِ فيقولُ

اللهُ ألم أوسِّعْ عليكَ حتَّى لم أدعْكَ تحتاجُ إلى أحدٍ قالَ بلى يا ربِّ قالَ فماذا عمِلتَ فيما آتيتُك قالَ كنتُ أصلُ الرَّحمَ وأتصدَّقُ فيقولُ اللهُ لَه كذَبتَ وتقولُ الملائِكةُ لَه كذَبتَ ويقولُ اللهُ بل أردتَ أن يقالَ فلانٌ جَوادٌ وقد قيلَ ذلكَ ويُؤتى بالَّذي قُتلَ في سبيلِ اللهِ فيقولُ اللهُ لَه في ماذا قُتلتَ فيقولُ أُمِرتُ بالجِهادِ في سبيلِك فقاتلتُ حتَّى قُتلتُ فيقولُ اللهُ لَه كذبتَ وتقولُ لَه الملائِكةُ كذبتَ ويقولُ اللهُ بل أردتَ أن يقالَ فلانٌ جريءٌ فقد قيلَ ذلكَ ثمَّ ضربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علَى رُكبتي فقالَ يا أبا هريرةَ أولئِك الثَّلاثةُ أوَّلُ خلقِ اللهِ تُسعَّرُ بِهمُ النَّارُ يومَ القيامةِ) إذاً نحن نحتاج إلى التزكية.

أسباب تخلف العلم عن العمل:

أولاً: عدم مخاطبة النفس به ابتداءً أي لا نخاطب بهذا الكلام أنفسنا فبعض الناس يتعلم من أجل أن يفرح بالكلام الذي يسمعه وبعضهم يدرّس من أجل أن يفرح بالتدريس ولذلك قال عليه الصلاة والسلام والحديث عند إبن ماجه قال صلى الله

عليه وسلم: (مَن تعلَّمَ العِلمَ ليباهيَ بِهِ العلماءَ ويجاريَ بِهِ السُّفَهاءَ ويصرِفَ بِهِ وجوهَ النَّاسِ إليهِ أدخلَهُ اللهُ جَهنَّمَ) .

إذاً الخلل في النية وهذه القضية الهامة تدخلني في الحديث عن عوائق وإشكالات في طريق طلب العلم تمنع المتعلم والعالم أن يعملا بالعلم وذلك لأن صاحبه يحب الشهرة والتصدر و الإمام الشاطبي رحمه الله عنده مقولة لطيفة يقول:

" آخر الأشياء نزولاً من قلوب الصالحين حب التصدر " و هذه من الإشكالات التي تعيق الإنسان أن يكون على تزكية عالية لذلك أبو الحسن علي بن الحسن الدارقطني رحمه الله يقول: " تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون العلم إلا لله " ويقصد بذلك أنه لما بدأ الطلب كانت نيته الظهور والشهرة فطلب العلم لغير الله فلما سار في العلم تهذبت نيته وتصحح قصده وقويت إرادته في أن يكون العلم لله خالصاً لأن العلم يعرِّفك على الله ، وأيضاً من الإشكالات الإستقامة الجوفاء أعني بها أن يكون الإنسان مستقيماً بشكله ومظهره ولكنه لا يعيش معاني الإسلام الحقيقية في حياته وفي الحديث (قالوا يا رسولَ اللهِ فلانةٌ تصومُ النَّهارَ وتقومُ اللَّيلَ وتُؤذي جيرانَها قال هي في النَّارِ قالوا يا رسولَ اللهِ فلانةٌ تُصلِّي المكتوباتِ وتَصدَّقُ

بالأثوارِ من الأَقِطِ ولا تُؤذي جيرانَها قال هي في الجنَّةِ) حتى تعلم أن القضية ليست شعائر تعبدية محضة صلاة وصوم فهذه الإستقامة تسمى الإستقامة الجوفاء يقول إبن قدامة المقدسي مقسماً الناس : " فرقة أحكمت العلوم الشرعية وأهملوا تفقد الجوارح وإلزامها الطاعات وبعضهم أحكموا العلوم الشرعية وأعمال الجوارح الظاهرة ولكنهم لم يتفقدوا القلوب للصفات الذميمة التي فيها كالحسد والرياء وطلب العلو والكبر فزينوا ظاهرهم وأهملوا باطنهم و فرقة ضبطوا العلوم وضبطوا الظواهر وضبطوا البواطن ولكنهم في بقايا قلوبهم وفي زوايا منها بعض الرياء "

وهذه إشكالات المتعلمين لذلك ينبغي أن نخاطب النفس به ابتداء لماذا نتعلم؟ طلبا للنجاة ؛وإنقاذاً لأنفسنا إن لم تكن هذه هي الغاية الصحيحة فلن نستطيع أن نحسِّن ولا أن نقوِّم من أنفسنا لذلك يقول إبن عبد البر في كتابه التمهيد : " خير العلوم ما ضبط أصله واستُذكر فرعه وقاد إلى الله تعالى ودل على رضاه " ، و يقول إبن الجوزي رحمه الله تعالى في كتابه أدب الوعظ يقول: " وكنت أختلف إلى شيخي عبد الوهاب الأنماطي فكنت أتعلم من بكائه أكثر من تعلمي من روايته ومما استفدته منه أنه كان لا يغتاب أحداً ولا يُغتاب عنده أحدٌ وكان يقول لنا علِّموا

العلم مجانـًا كما تعلمتموه مجانـًا " وكان أبو مظفر الخزاعي رحمه الله تلميذ الإمام أحمد يقول : " لقد صحبت الإمام أحمد اثنتي عشرة سنة قال ما كتبت عنه حرفـًا تعلمت من سمته وأدبه " إذاً العلم الحقيقي ما قادك إلى الله ، و يقول الماوردي رحمه الله تعالى في كتابه أدب الدنيا والدين في ذات الصياغ يتحدث عن فعل الطاعات وتركها يقول : " ومن الناس من يفعل الطاعة ابتداءً ومنهم من يفعلها اقتداءً ومنهم من يتركها استحسانـًا ومنهم من يتركها حرمانـًا " الذي يفعل الطاعة ابتداءً كريم من نفسه فيقوم الليل و يصوم النوافل وهكذا ومنهم من لا ينشط إلا إذا فعلت الطاعة أمامه لكن بعض الناس يترك الطاعة استحسانـًا أي يقول لك لا داع لصلاتي وهذا ردئ ، والذي تركها حرمانـًا فهذا من الشقاء و أقول لكم كثيرٌ قد حُرم هذا الباب باب بر والديه وهو من أبواب الحسنات قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الوالدُ أَوْسَطُ أبوابِ الجنةِ) وحديث الترمذي الذي صححه الألباني (الجنةُ تحتَ أقدامِ الأَمَّهاتِ) ومن الحرمان أننا لا نبرهم.



كيف نتزكى

و هذه أود أن أجعلها مقدمة للتزكية كيف نتزكى؟ يتزكى كل إنسان على حسب الحال التي توافقه فالحاكم لا يتزكى بكثرة الصلاة ولكن يتزكى بإقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعالم يتزكى بتعليم العلم والصبر على أسئلة الناس وصاحب المال يتزكى بالإنفاق وهكذا كل إنسان يتزكى بما يناسبه حتى شيخ الإسلام رحمه الله يقول : " **بعض الناس لا يتأثر بالقرآن ولكن يتأثر بالسيرة فيبكي** "و هذا ليس بضعف لكن هذا الذي يناسب حال كل واحد و لكنَّ التأثر بالقرآن أولى من التأثر بالسنة لكن الإنسان لأنه لم يصل إلى درجة التأثر بالقرآن ربما يتأثر بالسنة لأنها أقرب إلى البشر من حيث أن النبي بشر قال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف : ١١٠) لذلك حينما تذكر سيرته يحدث التأثر لذلك الزهد في الحسنات إشكال فالمؤمن ينبغي أن يكثر من الحسنات فالذي يرى الحسنة والطاعة ولا يستطيع أن يأتيها هذا محروم فمثلاً البعض عندما يعلم أن هذا الأمرمستحب يتركه لذلك السلف يقولون المستحب يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه ولكن تاركه محروم.

ثالثًا:

من أسباب تخلف العلم عن العمل: التفريق بين الإيمان والعمل والعلم يجمع الإيمان ويجمع العمل و نحتاج إلي الورع و لا تزكية بدون ورع والورع يأتي به الإيمان و التفريق بين الإيمان كمعارف وجدانية وبين السلوك كممارسة عملية إشكال الناس فلابد من لوازم الإيمان كما قال تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (النساء :٦٥) لذلك قوة الإيمان وعظم الخوف من الله هو الذي يولد

العمل قال تعالى : (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر:٩) انظر لما خاف الله قام الليل و هذا هوالذي يحرك الإنسان فلابد أن نجمع بين الإيمان وبين العمل كثير من الناس يفرق يظن أن الإيمان مجرد مذهب إجتهادي أو معارف وجدانية لا العقيدة والإيمان سلوكيات وممارسات تأملوا قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ {٥٧} وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) (المؤمنون : ٥٨) انظر إلى الإيمان العالي هذا (وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ {٥٩} وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ {٦٠} أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) (المؤمنون:٦١) يعني أعظم دافع لفعل الصالحات إيمانك بالله وتعظيمك له.

حفصة بنت سيرين رحمها الله تعالى عندها جارية سندية خادمة في البيت سألوا الجارية كيف سيدتك حفصة قالت : " من أحسن الناس لا تؤذي أحداً تتواضع للناس جميعًا لا تراها إلا وهي ضاحكة مع الناس تصوم النهار وتقوم الليل ولكنها أذنبت ذنبا كبيراً سألوا الجارية أي ذنب قالت لا أعرف قالوا وكيف قلت أنها تبكي

الليل كله " الجارية المسكينة تظن أن هذا بسبب ذنب لكن هذه قلوب الأنقياء ولذلك حفصة بنت سيرين كانت تقوم الليل وتبكي فإذا جاء النهار خدمت الناس وضحكت معهم حتى يظنوا أنها تمزح معهم و أنها لا تبكي بالليل وهذا هو التوازن الصحيح يقول إبن القيم : " لنفس جبل بينك وبين الله في طريقك إلى الله "

لأن فيها من الآفات والميول والرغبات والتعقيد ما يصرفك عن الله والإمام الماوردي يتحدث عن بعض الطاعات التي تكسب صاحبها الوزر فأول من تسعر بهم النار ثلاثة كلهم طائعين مجاهد في سبيل الله ومنفق أمواله في إقامة الخير والمساجد ورجل يحفظ القرآن ويعلمه بعد هذا كله دخلوا النار لأن هذه طاعة معها آفات و ينبغي أن تكون خالية منها.

ثم أود ان أطرح سؤالاً كيف نُرَقِي من سلوكنا ؟

أولاً :

العبادات القلبية : ألف شيخ الإسلام ابن تيمية التحفة العراقية في الأعمال القلبية وهي الإخلاص والصدق ومحبة الله والأنس به والثقة فيه وتعظيمه وتأليهه وإجلاله وخوفه ورجاؤه والإخبات إليه والثقة في أمره والتوكل عليه وقوة الصلة به وقرب القلب منه كل هذه العبادات القلبية مفقودة في حياتنا الرضا السكينة الطمأنينة إلى أقدار الله عز وجل أليست هذه عبادات قلبية ؟ نحن نحتاج إليها فنحتاج إلى تحقيق التوحيد.

ثانيًا :نحتاج إلى كثرة العبادة وكثرة الذكر والخشية ولقد وصف الله أهل العلم بالعبادة قال عز وجل :﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨)وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ (الإسراء : ١٠٩)

صفات من هذه ؟ إنها صفات العلماء لذلك يقول الحسن البصري : " إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لهم " فكأنَّ الفقه والعلم خلاصته وثمرته .يقول إبن قدامة المقدسي : " العلم عبادة القلب "

ثالثًا :

من السلوك المطلوب للتزكية بالنسبة لمن يتعلمون العلم الشرعي الكمالات النفسية وسنفصل في ذلك بإذن الله و أخيراً أقول أن هذه المادة سوف تسعى إلى تنزيل المعاني السابقة ونحاول أن نطبقها على أنفسنا وأن ننهض بسلوكنا.

العبودية

أُحاول في هذا المجلس أن أُلقيَ الضوءَ على أعلى مراتب العبادة وأجل مقامات التزكية لا توجد على ظهر البسيطة وظيفة أجل ، ولا مقام أعظم ولا منزلة أرفع ؛ من أن نكون عبيداً لله وفي ذاك يقول سبحانه عن أنبيائه ورسله : (وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ) (ص : ٤٥)

وقال عن نوح عليه السلام : (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)

(٣ : الإسراء)

وقال تعالى : (لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) (١٧٢ : النساء)

وقال تعالى : (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (١٧ : ص)

وقال عن سليمان عليه السلام : (وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (٣٠: ص)

وقال تعالي : (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ) (٥٩ : الزخرف)

وهذه العبودية مقامات كثيرة ودرجات رفيعة وأساسها ولبُّها يقوم على أمرين :

الأمر الأول : الحب الكامل ، والأمر الثاني : الذل التام

ولا يتصور عبودية بغير حب ولا ذل ، والحب الكامل لا يتأتي إلا بالتأمل في النعم والنظر في الأسماء والصفات ومعرفة معانيها والذل التام لا يأتي إلا بالإعتراف بالذنب ومراعاة التقصير والخوف منه سبحانه وتعالى ، وقد تحب ولا تذل وقد تذل وأنت مكره على بغض واستكراه ، ولكن الحب إذا اجتمع مع الذل التام حقق العبودية لله وجمع ذلك سيد الإستغفار الذي أخرجه الإمام البخاري :

(سيد الاستغفار اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّي، لا إلَهَ إلَّا أنْتَ، خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا علَى عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، (حب) وأَبُوءُ لكَ بذَنْبِي (ذل) اغْفِرْ لِي، فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنْتَ) والعبودية دائرة بين الإباءة بالنعمة والإعتراف بها وبين الإباءة بالتقصير والإعتراف بالذنب ، هذه العبودية تحتاج إلى فقه عظيم لأنَّ من الناس من يريد أن يعبد الله ولكنَّه يعبد الله بجهل والعبادة ينبغي أن تُحسن

(اللهمَّ أعني على ذكرِك وشكرِكَ وحسنِ عبادتِكَ) ليس المقصود مجرد العبادة ولكن المقصود حسنها بإخلاص في النية وصدق في القصد ومتابعة في الجوارح لرسول الله صلى الله عليه وسلم تكون العبادة عبادة صحيحة ، و العبادة ينبغي أن تواصل ولا يفتُر صاحبُها كما قال تعالى : (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(٩٩ : الحجر) وهذه العبادة تسائل أهل العلم قالوا أي العبوديات أفضل ؟ قال إبن القيم رحمه الله (فقال بعضهم أفضل العبوديات العبوديات التي ترتبط بنفع متعدي كتعليم الجاهل وإرشاد الضال وكفالة اليتيم والسعي على الأرملة وقضاء الحوائج ودفع العدو وإلى غير ذلك من العبوديات التي فيها نفع متعدد هذه أجل

العبوديات والقول الثاني أجل العبوديات ما كان زهداً في الدنيا وتعلقًا بالآخرة وعفافًا وكفافًا عمَّا في أيدي الناس وقال بعضهم أجَّل العبوديات أحمرها وأثقلها على النفوس وأصعبها على القلوب) أحمرها بمعنى : العبودية التي فيها مشقة فيها أجر كثير ، أمَّا شيخ الإسلام إبن تيمية رحمه الله يقول: (العبادة والمشقة لا يتلازمان فمن قصد المشقة من أجل أن يعبد الله إبتدع و أمَّا من عبد الله في عبودية وكانت العبودية للمشقة لازمة فلا شك أن أجره وافر) بمعنى لا يكون الحج إلا بتعب ونصب فمن ذهب إلى الحج بلا شكٍ سيجد مشقةً وسيكون أجره أعظم ؛ وهذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة : (إنَّ لك من الأجرِ على قدْرِ نَصَبِك و نفقتِك) بمعنى الأجر على قدر التعب ؛ فالتعب لا يُقصد ولكن إذا وجُد في العبادة يصبر عليه والأجر فيه كثير أمَّا أن يتحرى المشقة ولو لم يكن فيها مشقة فإنّ هذا مما لا شك فيه إبتداع في الدين ، أيُّ العبوديات أفضل في هذه الأقوال الثلاثة ؟ العبودية ما كان نفعها متعدي العبودية ما كان زهداً ، العبودية ما كان مشقة وتعبًا ونصبًا أيُّ هذه الأقوال أصوب ؟ كل هذه الأقوال غير صحيحة ، القول الرابع قال إبن القيم : (أجَلُّ العبودية عبودية الوقت) قال رحمه الله : (فأجَّل العبودية في قدوم

الضيف رفع الأوراد والأذكار واستقباله وأجَّل العبودية عند الأذان الترديد معه ، وأجَّل العبودية عند الصلاة التأهب والتهيؤ لها والقيام بواجباتها والإستعداد لها وأجَّل العبودية عند قدوم العدو ليس في الصلاة إنَّما دفعه ، ولو كانت الصلاة صلاة خوف أو صلاة قصر من أجل دفع العدو وأجل العبودية عند السؤال والفتوى إفتاء المستفتي وتعليم الجاهل ، ولذلك أجَّل العبودية عبودية الوقت العبودية الصحيحة في وقتها وحينها) وهنا ناقش إبن القيم مسألة عجيبة قال : (بعض الناس إذا خلا بنفسه وجد لقلبه جمعية ؛ يعني قلبه قد تجمَّع لم شعث القلب فهو يذكر الله بحلاوة ولذة ويدرك معنى الأذكار ويقف على حقائق المعاني التي يريدها ، فإذا أتى وقت الصلاة أخَّرها لأنَّه إذا أتى الصلاة إنقطع فكره وتشتت جمعية إقباله على الله ؛ هنا سؤال يقوم أمْ يواصل في ذكره ؟ قال إبن القيم : لو كان جالسًا تحت العرش مقبلاً على الله وأتى وقت الصلاة يقوم يصلي لأنَّ الصلاة عبودية الوقت ولا يجوز أن يؤخرها) وهذا يقودنا إلى من يتعبد الله بالبدع ويريد أن يتقرب إلى الله بغير الشرع كالضاربين بالدُّف في الأذكار متقربين إلى الله أو المبتدعين عبوديات يتقربون إلى الله بها وهي بدعة) وهنا ضرب إبن القيم مثلاً عجيبًا قال : (من مداخل الشيطان

الشرك بالله و المدخل الثاني البدعة فإذا نجا منهما ، أتاه من باب الكبيرة فإذا نجا أتاه من باب الصغيرة ، فإذا نجا من الشرك ومن البدعة ومن الكبيرة ومن الصغيرة ؛ أتاه من باب شغله بالمفضول عن الفاضل فإذا نجا أتاه بباب الوساوس وبشغل القلب عن الله بكثرة الوساوس) الآن كثير من شباب هذه الأجيال يعاني من الوسوسة في العقيدة يقول لك أين الله ؟ فيبدأ في الوسوسة وأنا أشعر أنَّ كثيراً من الناس يعانون هذه الوسوسة وبعض الناس ينشغل ببعض الأشياء في الطهارة حتى يفوِّت المعنى والمضمون في الصلاة ، قال إبن القيم :(الظبي أسرع جريـًا من الكلب فإذا جرت و لم تلتفت لا يدركها الكلب ، لكنَّها إذا التفتت ووجدت في الكلب قوة في السعي وإبراز لأسنانه خارعزمُها وانهارت قُواها فادركها الكلب) وهكذا الشيطان مع الإنسان فينبغي ألّا يلتفت قلبك إلى هذه الوساوس البتة .

الأمر الثاني : يقول إبن القيم : (إذا عرضت عليك الكلاب أو كلب في الطريق ماذا تفعل ؟ فإذا كنت في طريق سيرك إلى الله وأزعجك الشيطان بساوسه فلا تلتفت إليه

والتفت إلى ربه يمنعه عنك)، وهذه هي الإستعاذة المشروعة أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم الإستعاذة معناها الإحتماء بالله .

ثالثًا : دفع الوساوس الواردة في العقائد بقولك ودعائك : (اللهم أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت على كل شيء قدير) هذا يدفع الوسوسة سواء كانت في العقيدة أو في العبادة .

رابعًا : علاج الوسوسة بالعلم الشرعي ففي الحديث (جاءَ ناسٌ مِن أصْحابِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَسَأَلُوهُ: إنَّا نَجِدُ في أنْفُسِنا ما يَتَعاظَمُ أحَدُنا أنْ يَتَكَلَّمَ به، قالَ: وقدْ وجَدْتُمُوهُ؟ قالوا: نَعَمْ، قالَ: ذاكَ صَرِيحُ الإيمانِ) وقال صلى الله عليه وسلم : (إنَّ اللهَ تجاوز لأمَّتي ما حدَّثت به أنفسَها ما لم تقُلْ أو تعملْ) لماذا؟ لأنه ماذا يفعل الشيطان بقلوب خربة ؟ والشيطان نفسه لا يحميك منه إلا عبودية لله قوية كما قال تعالى : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) (٤٢ : الحجر)

وقال تعالى : (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ)

(١٠٠ : النحل)

وكما قال تعالى : (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (ص : ٨٢)

نقول العبودية لله عز وجل هي الدرجة الرفيعة و المنزلة العالية في العبادة ينبغي أن تكون بالفقه كما أسلفنا هذه مداخل الشيطان ؛ والشيطان يوقع الناس بالتدريج في الأمور وبالتزيين ، لكن قوة الإيمان وصدق اليقين وعِظَم التوحيد في القلب وعدم وجود مجال في النفس لوساوس الشيطان هو الذي يدفع كل مداخل الشيطان ويصدها ؛ وإبن القيم يقول : (الشيطان والدنيا عدوان خارجيان والنفس عدو بين جنبيك وسُنة الجهاد (قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ) و من أمكن الله من نفسه لا تستطيع دنيا أن تغلبه ولا شيطان يهزمه) فكلما قويت نفسك بالإيمان وحرصت على التعلق بالله وحبه سبحانه كلما قوي إيمانك وكلما صددت كل شيء يأتيك ، يقول إبن القيم في كتاب الرعاية وهذا كتاب في أعمال القلوب لأبي عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي كان يتكلم كثيراً عن محاسبة النفس والورع وعن كل ما يغضب الله عز

وجل والبعد ؛ قال : (فقرأه أناس فتعطلت مساجد عن الجُمع والجماعات) وذلك خوفًا من الرياء ، قال إبن القيم : (فكان بمثابة من أراد أن يبنيَ قصراً فهدم مصراً) خلاصة ذلك التوازن في العبودية الحقة ؛ و عبودية التوازن تعطي كل عبودية حقها ، أتسائل عن عبودية من العبوديات العظيمة المفقودة عبودية الأنس بالله ؛ والأنس بالله من العبوديات المرتبطة بالمحبة، حب الله وأن يكون الله قريبًا من نفوسنا وأن نحبه حبًا عظيمًا وأن نلهج بحبه وأن نريد القرب منه سبحانه ، وذلك خلاصة سعي الأولين ؛ يقول إبن القيم رحمه الله تعالى : (يقول إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن والخلة تقتضي إمتلاك المحبة للمحبوب من أوله إلى آخره فلمَّا رُزِق إبراهيم بإسماعيل وهو على كِبر تعلق به تعلقًا مشروعًا ولكن الله يريد قلب الخليل له وحده لا يقبل مزاحمًا فأمر الله إبراهيم بذبح إبنه إسماعيل ما أراد الله ذبح إسماعيل حسًا ولكن أراد أن يذبحه معنىً أي ؛ أن يذبح المحبة في قلب والده تجاهه فلما أسلما كانت المحبة قد ذُبحتْ فحصُل المقصود فلم يكن هنالك داع لذبحه حسًا وقد ذُبح معنى ولذلك قال تعالى : (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)

(١٠٣ : الصافات)

وأتى في الأثر : (قال الله لإبراهيم : لمّا رددت إلينا قلبك بكلياته رددنا إليك ولدك) فكان الغرض من الإمتحان تجريد القلب لله حبًا ، وهذا من الأمور المفقودة ؛ يقول إبن القيم رحمه الله تعالى في المدارج : (فإنك إذا عصيت فقل لله : عصيتك وأنا أحبك ولم أعصك جُرْأةً عليك ولكن سوَّلتْ لي نفسي وغرَّني بك الغرور وغرَّني سِتْرك الذي أرخيت عليَّ فاغفرْ لي ذنبي) هذا هو المعنى أن نحب الله ، وعبودية الأنس بالله من أجل العبوديات وهي لا تقوم إلاعلى أركان ثلاثة : صدق محبةٍ ودوام ذكرٍ وإحسان عملٍ ؛ لا يمكن أن تأنس بمن لا تحب فمن أنست به أحببته ، وكان هذا حال سلفنا الأوآئل ، يقول عثمان بن أبي دهرش رحمه الله ناقلاً عن عبدالله بن المبارك قال : (كان لا يأنس إلا بالليل لأنه يجد خلْوته بربه فإذا أتى النهار إغتم وقال : أصير مع الناس فلا أدري ماذا أجني على نفسي) الأنس بالله يحتاج إلى صدق محبة كان عبيد الله بن الحسن العنبري رحمه الله تعالى من علماء السلف ترجم له إبن كثير في البداية والنهاية (كانت له جارية يحبها أشد ما يحب الرجال النساء وافتقدها ذات مرة في الفراش ؛ فسمع صوتـًا خافتـًا فدنى من الصوت

فإذا هي قد قامت في جوف الليل تصلي لله ؛ وسمعها تقول : (اللهم بحبك لي اغفر لي) فاستنكر ذلك وكان عالماً من القضاة انتظرها فلما قالت السلام عليكم قال لها يا جارية قلتِ : اللهم بحبك لي اغفر لي وهل ضمنت حبه ؟ لكن قولي اللهم بحبي اغفر لي ، فقالت له : قصدت ألا أقول هذا ، فهو الذي أيقظ عيني وأنام) فكأنَّ التوفيق إلي الطاعة والتماس أبواب الهداية هو جزءٌ من حب الله .

ثم دوام الذكر ؛ فمن أحب إنساناً لهج بذكره فلماذا لا تحكي عن ربك كثيراً ؟ والحديث عن ربك هو الذكر وإحسان العمل هذه هي العبودية ، عبودية الأنس بالله عز وجل هي أجَّل مراتب العبودية لأنها عبودية قلبية صرفاً .

يقول إبن رجب في كتابه إستنشاق نسيم الأنس : (أن بعض الناس يستنشق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس الذين قاموا لله في جوف الليل ووقت السحر يدعونه ويأنسون به وغيرهم نِيامٌ) وأبواب الملوك لا تطرق بالأيدي ولكن بنفس المحتاج أهل الليل ، ثم قال : (يحملون مزامير أنس) في جوف الليل لمَّا قاموا يحملون مزامير أنس ويجوز أن يطلق على القرآن مزمار أو لم يقل عليه الصلاة

والسلام لأبي موسى : (يا أبا موسى ! لقد أُوتيتَ مِزْمارًا من مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ) وأهل الليل من خاصة الله وأهل الأنس به يحملون مزامير يأنسون بها وهذا هو الذي جعل أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول : (أَهْلُ اللَّيْلِ فِي لَيْلِهِمْ أَلَذُّ مِنْ أَهْلِ اللهْوِ فِي لَهْوِهِمْ، وَلَوْلَا اللَّيْلُ مَا أَحْبَبْتُ الْبَقَاءَ) وعَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ قِيلَ لِلْحَسَنِ: (مَا بَالُ الْمُتَهَجِّدِينَ أَحْسَنُ النَّاسِ وُجُوهًا؟ قَالَ: لأَنَّهُمْ خَلَوْا بِالرَّحْمَنِ فَأَلْبَسَهُمْ نُورًا مِنْ نُورِهِ) وكان إبن رجب يقول : (يحملون مزامير أُنسٍ في مقاصير قدسٍ بألحان توحيدٍ في رياض تمجيد بشدوِ المثاني المؤدية إلى تلك المعاني إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر هذا طعم الخبر فكيف طعم النظر)

هذه المعاني الراقيات من معاني تعلق القلب بالله وإقبال القلب بالكلية على الله تحقيقًا لمعاني العبودية الحقة هو أعلى وأرفع درجات العبودية على الإطلاق و لا أكون مبالغًا إن قلت الذي عاشه أسلافنا من رقي ؛ كأننا نسمع به لأول مرة ونشعر أنَّ بيننا وبينه جفوة .

التوبة معنىً رفيع فليست التوبة فقط من الذنب ؛ فالترقي في كمالات الطاعة ومدارج العبودية توبة إلى الله ، فمن لم يكن من أهل الإثنين والخميس ثم أصبح يصوم الإثنين والخميس يُقال تاب إلى الله لأنه حال عدم صيامه كان عن الخير غافلاً و لم يكن عاصيـًا ومن لم يكن من أهل الليل فتركه لقيام الليل ليس معصية ؛ ولكن حزمه الأمر من جديد ما أقبل على الليل من جديد إلا بتوبة بينه وبين نفسه ولذلك لابد من من إدراك هذا المعنى العميق ، إبن رجب في لطائف المعارف يقول: (إبراهيم بن يزيد النخعي كان يصوم الإثنين والخميس لما يأتي يوم الاتنين يجلس إلى زوجه صائما فيبكي فتقول له زوجه ما الذي يبكيك ؟ يقول الآن يرفع عملنا إلى الله تحمله الملائكة فيه أقوالنا وأفعالنا التي مضت فيها خير و شر فلا أدري أيقبل الله منا أو لا يقبل) والنبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم الاثنين والخميس قال : (إنَّ الأعمالَ تُرفَعُ يومَ الاثنيْنِ و الخميسِ ، فأُحِبُّ أنْ يُرفَعَ عمَلِي و أنا صائِمٌ) .

الأسباب المعينة على حب الله والأنس به:

أولاً : دعاء الله والإستعانة به أن يجعلك عبداً له (اللَّهُمَّ أعِنِّي على ذِكرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عِبادتِكَ) فكلنا فقير إلى عون الله وإلى توفيقه وهذا رأس الأمر كله .

ثانيًا : من أكبر المعينات على ذلك الوقوف على حقائق الإيمان والوقوف على لُبِّ التوحيد والنفاذ إلى جوهر العقيدة الصحيحة وأن يكل أمره إلى الله كله ، ويرجع الأمر إلى الله أوله وآخره ويُفوِّض الله في أمره ثقةً فيه سبحانه ، حتى قال إبن القيم : (وحوْت الإستخارة شواهد الإيمان وحقائق اليقين اللهم إني استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم إنك أنت علام الغيوب اللهم إن علمت هذا الأمر ويسمه خير لي في ديني ودنياي .....) هذه المعاني سبحان الله فيها درجة عالية من التوكل و أن تقنع بما أعطاك وأن تعلم أن عطاءه لك ؛ أفضل من عطاء نفسك واختياره لك أفضل من اختيارك هذه معاني العبودية .

وإذا أردنا الأنس بالله سبحانه وتعالى فلايكون ذلك إلا بمعرفته ، والوقوف على حقائق توحيده وأسمائه وصفاته ، و وأن نتعبد بمقتضاها أن نتعبد بآثارالأسماء والصفات ؛ ماذا يفيدك قوله : السميع العليم ؟ ماذا يفيدك قوله : الحي القيوم ؟ إنه يربي في نفسك تعلقاً بالله وهنا أود أن أُنبه إلى مسألة مهمة وهي مسألة التعلق بالبشر بزعم أنَّ هذا جزءٌ من الحب في الله وهذا ملبس خطير ؛ يقول إبن القيم : (كلما يصرفك عن الله ويبعدك عنه سبحانه من مخالطة البشر إنما هو ضار أمَّا الأُخوة في الله فمن أنفع العبوديات والواجبات غير أنها لا تخلو من محاذير :

المحذورالأول : أن يكون معها فضول كلام و كثير ضحك وأُنس بعيداً عن الأذكار والنصح .

المحذور ثانياً : أن يحصل معها تعلق يصرفك عن مقصودك الأعلى وعن محبوبك الأعظم رب العزة والجلال فيصبح التعلق لا لله وهذا خيط رفيع ، قد تقطعه عن الله وتجده انشغل عن الذكر وعن العبادة فأصبح همه في أخيه أكثر ؛ أو يفعل أمامه المعصية ولا ينصحه خشية أن يفارقه وأن تتكدر القلوب وأن تقطع

العلاقة بينهما ، ثم هنا مسألة مهمة جداً لابد أن أُشير إليها وهي التعلق بالصور ؛ الدال على ضعف القلوب ، يقول إبن تيمية في التحفة العراقية : (من أحب غير الله عُذِّبَ) ومن كان قلبه مليءٌ بالإيمان لا يجد في قلبه مكانـًا للصور ، ولا العشق مكانـًا وقد يحصل العشق بين الرجال مع بعضهم ، وبين النساء مع بعضهن وتكون العلاقات ربما غير منضبطة في بعض النواحي مثلاً يحصل شيء من الملامسة بين الشباب ؛ و بين النساء تفوق الحد الشرعي ويحصُل مع ذلك لذة ؛ وهذه لذة محرمة منعها الشارع ، ئكر ابو نعيم الأصبهاني في كتابه حلية الأولياء قال: (الْتَقَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ، " فَتَذَاكَرَا فَبَكَيَا فَقَالَ سُفْيَانُ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَجْلِسُنَا هَذَا أَعْظَمَ مَجْلِسٍ جَلَسْنَاهُ بَرَكَةً فَقَالَ الْفُضَيْلُ: نَرْجُو لَكِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مَجْلِسٍ جَلَسْنَاهُ عَلَيْنَا شُؤْمًا أَلَيْسَ نَظَرْتَ إِلَى أَحْسَنَ مَا عِنْدَكَ فَتَزَيَّنْتَ لِي بِهِ وَتَزَيَّنْتُ لَكَ بِهِ فعَبَدْتَنِي وَعَبَدْتُكَ قَالَ: فَبَكَى سُفْيَانُ حَتَّى عَلَا نَحِيبُهُ ثُمَّ قَالَ: أَحْيَيْتَنِي أَحْيَاكَ اللهُ " .

المحذور الثالث : من محاذير الأخوة في الله ؛ التعلق الممنوع لذلك لابد من الأنس بالله بعد دعائه وتحقيق العبودية و الوقوف على حقائق التوحيد وعدم التفات القلب إلى غير الله البتة .

المحذور الرابع : لابد من ترك المعاصي بالنهار لتعين على أنس بالله وقيام بليل.

المحذور الخامس : إستعمال المعينات الحسية من منبهات وأخبر أحدهم أن يُوقظك.

أختم هذا الكلام بعباراتٍ لطيفاتٍ ذكرتها جاريةُ خالد الوراق التي كانت كثيرة البكاء بالليل ولما قال لها خالد يا جارية أتظنين ألا يرحمك الله ؟ قالت : كلامـًا يدل على قوة التعلق والأنس بالله ؛ ولعلي ذكرته لكم قبل هذا عن خالد الوراق أنه قال : (كانت لي جارية شديدة الاجتهاد فدخلت عليها يومـًا فأخبرتها برفق الله وقبوله يسير العمل. فبكت ثم قالت يا خالد إني لأؤمل من الله تعالى آمالاً لو حملتها الجبال لأشفقت من حملها كما ضعفت عن حمل الأمانة وإني لأعلم أن في كرم الله مستغاثـًا لكل مذنب، ولكن كيف لي بحسرة السباق؟ قال: قلت: وما حسرة

السباق؟ قالت: غداة الحشر إذا بعثر ما في القبور وركب الأبرار نجائب الأعمال فاستبقوا إلى الصراط. وعزة سيدي لا يسبق مقصر مجتهداً أبداً، ولو حبا المجد حبواً. أم كيف لي بموت الحزن والكمد إذا رأيت القوم يتراكضون وقد رفعت أعلام المحسنين وجاز الصراط المشتاقون ووصل إلى الله المحبون وخلفت مع المسيئين المذنبين؟ ثم بكت وقالت: يا خالد انظر لا يقطعك قاطع عن سرعة المبادرة بالأعمال فإنه ليس بين الدارين دار يدرك فيها الخدام ما فاتهم من الخدمة، فويل لمن قصر عن خدمة سيده ومعه الآمال، فهلا كانت الأعمال توقظه إذا نام البطالون؟) فلا بد من التعلق الصادق أسأل الله تعالى أن يتقبل منا وإياكم أجمعين وأن يوفقنا لما يحبه ويرضى وأن يأخذ بنواصينا الخاطئة إلى البر والتقوى .



معاملة الخلق

المجالس الماضية كانت تتحدث عن علاقة الإنسان بربه عبوديةً ورقًا وذلاً وانكساراً ومحبةً وأنسًا وتوكلاً ورضـًا فإنَّ هذا المجلس يتعلق بمعاملة الخلق بعضهم بعضـًا ؛ ومن ذلك أن المسلم الذي تزكَّى تظهر آثار التزكية عليه ، معاملة سمحة ، وأخلاقـًا حميدةً وخصالاً فاضلةً يعامل بها خلق الله ، و التزكية لا تعني مجرد طهارة القلب ورقته فقط ، و نجد كثير من المتدينين والملتزمين والمستقيمين والمنتسبين إلى الدين أخلاقهم فيها شيءٌ من الغلظة وأقوالهم بعيدة عن الإنضباط وأنفسهم سريعة الثوران كثيرة التقلب سريعة الغضب سريعة

الإنفعال فقد تجد الفتاة مسلمة طيبة مع ربها مصلية وصائمة ولكنها إذا أتت إلى باب ضبط النفس والإحتمال تجدها في هذا الباب ضعيفة ومن هنا فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الدين وبين والأخلاق وإن كانت الأخلاق شعبة من شعب الدين قال عليه الصلاة والسلام : (إذا أتاكم من تَرضَون دِينَه وخُلُقَه) أما وإنه عليه الصلاة والسلام لو قال إذا أتاكم من ترضون دينه فقط لكان كافيًا لأنَّ من الدين الخلق ، لكنه فرق ذلك لأن الواقع في ممارسات الناس يدل على ذلك فمن الناس من تجده صاحب دين ولكنه في الأخلاق ضعيف والأخلاق هي معاملة بينه وبين خلق الله عز وجل ؛ ولذلك أحببت أن أقف مع هذه القضية وهي تعود إلى التزكية حيث أنه يعامل الخلق لله ابتداءً تحسن إلى خلق الله لأنَّ الله أمرك بالإحسان إلى خلقه فقال سبحانه وتعالى: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) (البقرة ٨٣) وذلك بالإحسان إلى الخلق تعبداً ، فتبسمك في وجه أخيك صدقة وهذا يعني التبسم احتسابًا وتعبداً ، من الناس من أصله التبسم وجبلته التبسم لكن هل فعله هذا صدقة؟ لأنَّ هذا من العمل الصالح الذي يحتاج إلى نية فهل أنت تتبسم طلبًا للأجر فلذلك اجتمعت كلمة علماء التزكية بأنك عندما تعامل الخلق بالحسنى ليس لهم ولكنك تعامل الله

؛ بدليل أن الله عز وجل أمرنا أن نقاتل بعض الناس فنحن بالسيف نضربهم وليس هذا قسوة إنما رحمة ، الجهاد في سبيل الله قسوة ولا رحمة ؟ رحمة لأنه من أجل المعاني الكبيرة (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (٣٩ :الأنفال) إذاً ومن هنا جاءت مقولة عظيمة الشأن (الدِّين المعاملة) وهي ليست حديث يعني لا يصح نسبتها للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن المعنى صحيح الدين في كلياته ومقاصده ومراميه وأهدافه يرمي إلى إحسان المعاملة مع الخلق.

إن جِماع الإسلام في أمرين :

فالأمر الأول : معرفة الحق توحيد الله والأمر الثاني : الإحسان إلى الخلق

و هذا خلاصة الدين ؛ لذلك كانت الوصية بالجار و الوالدين والصدقات وإطعام الطعام وكسوة المسكين وكفالة اليتيم كل هذا داخل في الإحسان إلى الخلق ، و الصلوات والشعائر معرفة الحق فالدين كله علاقتك مع الله وعلاقتك مع الناس .

قال إبن القيم رحمه الله : " جِماع الدين في أمرين معرفة الحق والإحسان إلى الخلق وجماع هذا وملاكه في أمرين ان تكون مع الحق بلا خلق وأن تكون مع الخلق بلا نفس " من عرف هذه الكلمات عرف قواعد السلوك

كيف تكون إنسانًا قويمًا :

أن تكون مع الحق بلا خلق بأن لا تضع الناس بينك وبين الله وإذا لم تفعل لن تستطيع أن تصرف عبادة لله ستراعي خلق الله وسوف تجامل خلق الله وسوف تجاري المجتمع والعادات والتقاليد على حساب مرضاة الله فتسخط الله ؛ لذلك

لما تريد فعل شئ يُرض الله عليك أن لا تلتفت إلى أحد ؛ لأن الله إذا رضي عنك أرض الناس عنك ، فهذا معنى مهم أن تكون مع الحق بلا خلق .

وأن تكون مع الخلق بلا نفس ، عندما تعامل الناس ضع أمام نفسك صفراً ، أي لا تنظر إلي كرامتك وإلى عزتك بل تواضع وانكسر لأنك تعامل الخلق دون نفس .

قضية الأخلاق :

أقول : إن قضية الأخلاق في الإسلام قضية كبيرة وفق ما سمعنا الدين المعاملة وأداء الحقوق وترتيبها وأن الدين كله معرفة الحق والإحسان إلى الخلق وأن معرفة الحق لا تكون إلا بأن نكون مع الحق بلا خلق وأن الإحسان إلى الخلق يحتاج منا هضم نفس وذل و تواضع وانكسار كما قال تعالى : (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (٢٩ :محمد)

ويقول الله عزوجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(٥٤ : المائدة) ينبغي على العبد أن يكون ذليلاً لإخوانه ينكسر لهم لا يتعالى عليهم؛ هذه هي خلاصة الدين.

خُلق مفقود :

ومن الأخلاق المفقودة خلق الإيثار وهو أن تعطي وأنت محتاج ما عندك وتفضل أخاك على نفسك هذا مما لم أسمع به إلا عند أسلافنا (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٩ :الحشر) وانظروا إلى إيثار الصحابة الذين ذهبوا إلى غزوة ووجدوا بعد أيام طويلة من الجوع حيوان العنبر ، و هو حيوان مائي ميت وهوالطهور ماؤه الحل ميتته ووضع الطعام في ليل ليأكلوا كل إنسان يحاول أن يترك الطعام لأخيه فقاموا ولم يصيبوا من الحيوان شيئا تركوه كما هو.

الإيثار لما أهدى إبن عباس لأبي هريرة هدية أهداها أبو هريرة لغيره والغير للغير حتى مرت على أربعين رجلاً فعادت بعد أسبوع إلى صاحبها إبن عباس كهدية .

الإيثار مفقود وهو خلق رفيع المستوى ، و يدل على كمال التجرد وتمام الإيمان ؛ ولا يفعل ذلك إلا من يثق في الله أنه سيعوضه ، إذاً تأملوا خلق الإيثار النبيل الذي هو من أخلاق النبوة ؛ ومن أداب القرآن ؛ ومن سماحة الإسلام ؛ يقول أبو سليمان الداراني رحمه الله وهو من شيوخ الإمام أحمد يقول : " إني لأضع اللقمة في فم أخٍ من إخواني فأجد طعمها في حلقي " .



ضبط النفس

ضبط النفس : أن يكون الشخص ضابط نفسه وكما قال صلى الله عليه وسلم :

(ليس الشديدُ بالصُّرَعةِ إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَه عند الغضبِ) وهذا من أعظم الأخلاق الإسلامية والنبي صلى الله عليه وسلم ضرب أروع الأمثلة في هذه الأخلاق كلها يقول أنس رضي الله عنه : (خدَمْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عشْرَ سنينَ فما قال لي: أُفٍّ قطُّ) فهذا يدل على أنها أخلاق أصيلة لماذا ؟ لأن المقياس الصحيح والمعيار المنضبط لحسن الخلق هو أن يكون حسن الخلق مع من أقل منك درجة ؛ ويكون محتاج إليك ،وهذا أصيل أما الذي يتعالى على من

هو أقل منه ، ويعامل الأقران والأنداد معاملة كريمة هذا يتعامل بأقنعة مزيفة وأخلاق مستعارة وما أكثر هؤلاء ! يقول عليه الصلاة والسلام : (يَكونُ في آخرِ الزَّمانِ أقوامٌ إخوانُ العلانيةِ أعداءُ السَّريرةِ)

علمنا النبي صلى الله عليه وسلم معنى ضبط النفس :قال أنس بن مالك رضي الله عنه : (كُنْتُ أمْشِي مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعليه بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فأدْرَكَهُ أعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ برِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، حتَّى نَظَرْتُ إلى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قدْ أثَّرَتْ بهَا حَاشِيَةُ البُرْدِ مِن شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ، مُرْ لي مِن مَالِ اللهِ الذي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إلَيْهِ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أمَرَ له بعَطَاءٍ)

علمنا ضبط النفس ، كما قال تعالى : (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (١٣٤ :آل عمران) و لهذا أقول في هذه الجزئية بالذات ضرب لنا السلف أروع الأمثلة ، بهذا سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم " كان في الحج يرمي الجمرات أتاه شخص فدفعه فدفع الذي أمامه و الذي أمامه

كان سيء الخُلق ؛ التفت إلى سالم و قال له إنك رجل سوء ، قال له والله ما عرفني إلا أنت "

ضبط نفسه ضبطًا عجيبًا ؛ وهذا عمر بن ذر رحمه الله تعالى " أتاه رجل سبه وقال له والله لئن قلت كلمة لتسمعن عشراً ؛ قال له : والله لئن قلت عشراً لا تسمعن واحدة إنا لا نكافئ من عصا الله فينا بمثل أن نطيع الله فيه " وعلي بن الحسين زين العابدين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال عنهما القحطاني رحمه الله تعالى:

غُصْنَانِ أَصْلُهُمَا بِرَوْضَةِ أَحْمَدٍ *** للهِ دَرُّ الأَصْلِ والغُصْنَانِ

الحسن بن الحسن بن علي وجد على بن زين العابدين في درس كبير فأساءه أمام الطلاب قال له: " غشيم وظلوم ومجرم " ؛ قال الذهبي: « لم يترك له شيء سكت وأبى أن يرد وأشار إلى طلابه أن اسكتوا سمع الكلام حتى انتهى ثم واصل درسه وفي المساء ذهب إليه قال : له يابن عمي لقد قلت في اليوم مقالاً إن كنت صادقًا غفر الله لي وإن كنت كاذبًا غفر الله لك والسلام ؛ فلما أعطاه ظهره أخده إبن عمه

من خلفه والتزمه وجعل يقبله ويبكي ويقول اقلني اعف عني والله لا أعود لما تكره قال له قد أقلتك »

فضبط النفس من الأخلاق التي نحتاجها ؛ يقول إبن القيم في المدارج قال: « أحد الصالحين جالسًا أمام داره أتاه رجل وأساء إليه فقال له جزاك الله خيراً ودخل داره فخرج ولحيته فيها ماء سلم عليه قال السلام عليكم قال وعليكم السلام قال له ماذا فعلت لما دخلت دارك ؟ قال صليت ركعتين قال ولما ؟ قال تبت من الذنب الذي بسببه سلطك الله علي » السلف ينظرون إلى أن ما يصيبهم من الأذى إنما هو بقدر الله فيعتبرون أذى الخلق كأذى الحر والبرد . يقول إبن عباس رضي عنهما : « أربعة لهم عليَّ حق وفضل ، الأول من بدأني بالسلام والثاني من وسَّع علي في مجلس والثالث من غبر قدمه لقضاء حاجتي وأما الرابع ففضله علي كبير وحقه علي عظيم لا يكافئه عني إلا رب العباد قال رجل نزلت به حاجة فتقلب الليل على فراشه فوجدني أهل لقضاء حاجتي فجاءني يطرق بابي يطلبني قضاءها » سبحان الله ! من الذي عنده فضل على الآخر ؟ لكنها الأخلاق وضبط النفس .

في الحديث عن الأخلاق نقطة في الشفافية وصفاء النفس في التعامل مع الآخرين

مشاهد إيمانية في التعامل مع الخلق

المشهد الأول : كما قال إبن القيم « مشهد في القدر أن تشهد أن الخلق جميعهم يسيرهم رب العباد» باعتبارهم قدر فلا تنظر لأداهم لك ولكن انظر إلى تقدير الله عز وجل لك أن يؤذوك وتعامل معهم كالحر والبرد والإبتلاء والمرض .

المشهد الثاني : مشهد الأجر المترتب على احتمال أذى الخلق .

المشهد الثالث : مشهد العفو والصفح والحلم أن تكون حليمًا محتملاً .

المشهد الرابع : مشهد النعمة مشهد سأقف معه قليلاً حينما يأذيك هذه النعمة الأولى ؛ و الثانية نعمة الأجر الذي ساقه إليك ، و الثالثة أن تشهد أنه إذا أساء إليك هذه مصيبة قد ستر الله مصائب أكبر ودفع عنك آفات أعظم فاعتبرها مصيبة أقل من المصائب التي يمكن أن تأتيك فقد آذاك بالكلام وكان يمكن أن تؤذى بقطع يد أو ما شابه فإذا نظرت إليها بأنها مصيبة أقل من غيرها كانت بالنسبة لك نعمة لذلك

النبي صلى الله عليه وسلم قال في آخر الزمان : (تكونُ فِتَنٌ فكُنْ فيها عبدَ اللهِ المقتولَ ولا تكُنِ القاتلَ) حينما يصبح القتل دون سبب خيرٌ لك أن تكون مقتولاً من قاتل (لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) (٢٨ المائدة) فالنظر إلى هذه المسألة وأنها ليست في دينك هو في النهاية أذى لكن ليس في دينك .

المشهد الخامس : مشهد القدوة والأسوة ، أن تضع نفسك في مقام من هم أفضل منك وقد تأذوا أوذي رسول الله في عرضه ؛ وأوذي رسول الله في بدنه فإن وضعت نفسك مقامهم تسليت وتعزيت .

سادسًا : مشهد سلامة القلب ، وأنا ألحظ أن مجتمعنا يحتاج إلى هذه الأخلاق وأنتم الآن في مقام الدعاة لابد أن تفروا وتنتشروا بهذه الأخلاق التي ذكرتها لكم لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث حدر بن أبي حدر في سنن أبي داود : (من هجر أخاه سَنَةً فهو كسفكِ دمِه) .

سابعا : بعد ذلك مشهد التوحيد وهذا يعتبر من أَجَّل هذه المشاهد وأرفعها ومشهد التوحيد من امتلأ قلبه حبًا لله وإقبالاً على الله لا يحتمل أن يحمل في قلبه للناس من الكراهية والبغض لأن قلبه ليس فيه مجال فمن امتلأ قلبه بالتوحيد لا يكون فيه مجال للبشر والتفكير في أذاهم وكيف يرد عليهم لأنه سوف يصرفه عن الله ويشغله عن الله وهذا أيضا مشهد من المشاهد العالية .

كيف نضبط أنفسنا وكيف ننزل هذه الأخلاق الفاضلة علينا ؟

أولاً : لابد أن نعرف شيء يقول إبن القيم رحمه الله : « أصول الأخلاق الفاضلة أربعة وأصول الأخلاق الذميمة أربعة » ، والأخلاق الفاضلة الأربعة هي التي تولد بقية الأخلاق الجميلة الموجودة في الإنسان العدل والصبر والعفة والشجاعة العدل يولد صدق القول أداء الأمانة ورد الحقوق والعدل إنصاف المخالفين وإنصاف الخصوم والعدل يولد في النفس رد الحقوق إلى أهلها والصبر يولد ضبط النفس

والحلم واحتمال الأذى وعدم الالتفات إلى أذى الخلق وهكذا والعفة تولد الحياء والأمانة والشجاعة تولد الإنفاق والإيثار والكرم ، وأصول الأخلاق الذميمة أربعة أولها الظلم يولد الأخلاق الذميمة لماذا ؟ لأنه يؤدي إلى التعدي وأكل أموال الناس ووضع الشيء في غير موضعه ومدح من لا يستحق المدح وذم من لا يستحق الذم وهناك العدل والصبر عكسه هنا الغضب وهو رأس الأخلاق الذميمة ، سألتني إحداهنَّ قالت لي « أمي ترفع صوتي علي بشدة وأنا كذلك لكن سرعان ما أسكت عنها فهل هذا فيه ثواب ؟ قلت لها :« إذا كان السكوت عن أمك سكوت جفاء وجفوة يعتبر عقوق ، أما إذا كان سكوت ذل وخضوع للوالدة فهذا يعتبر من البر إن شاء الله » ، ثم الشهوة لأنها تربي وتولد الخسة والمهانة ورزائل الأخلاق وخلع جلباب الحياء ، كل هذا من الشهوة ، و بالمناسبة الشهوة من الخطورة بمكان أقوى داع في الإنسان هو داعي الشهوة ولذلك الشهوة تحتاج إلى تسكين، وهي شهوة الطعام شهوة الشراب وشهوة الكلام وشهوة ميْل الرجل إلى المرأة وميل المرأة إلى الرجل وهذا من الإشكالات الكبيرة وحتى أذكر أنه في بعض أنواع العلاقات القلبية مع الله ، إبن تيمية في التحفة العراقية يقول : « ألا ترى أن يوسف

عليه السلام مع أنه رجل ولكنه صمد أمام امرأة العزيز وترفَّع عنها لأنه كان مؤمن ولم يكن في قلبه لغير الله مجال وأما هي مع أنوثتها وحيائها دعته على رؤوس الأشهاد وأخذت بقميصه تجره وهو يتفلت منها تخلت من حيائها ذلك لأنها مشركة وقلبها خواء والقلب إذا كان خاوي من الإيمان ومن المعارف الربانية يتعلق بالصور »

والأشكال وهذا من الإشكالات ،حتى أذكر أن ابن الجوزي يقول : « من عجيب هذا الأمر ؛ الرجل تجده دينه ضعيف فيتعلق بامرأة أجمع العقلاء على أنها دميمة » لكن تعلقه بها سدَّ عليه باب أنها دميمة ، قال إبن تيمية : « والسبب أنها صادفت قلبـًا خاليـًا من الإيمان وحب الله فتمكنت »

وهذا الباب الأنبياء قالوا فيه ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٣ يوسف) لخطورته ، وقال فيه الإمام أحمد : « لو أُمنتُ على جبل من ذهب لوجدتني أمينـًا عليه ولو أمَّنتني على عجوز سوداء خرقاء شمطاء أخلو بها ساعة لما وجدتُ نفسي أمينـًا عليها » وأجَّل من كلام الإمام أحمد كلام النبوة :

(فاتَّقوا الدُّنيا، واتَّقوا النِّساءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فِتنةِ بَني إسرائيلَ كانت في النِّساءِ) سُئل شيخ الإسلام إبن تيمية : « عن الخطيب يقدم لخطيبته هدايا قال لا يجوز لما لا يؤمن من التعلق فإنَّ الهدية تقود إلى الحب بالفطرة » (تهادَوا تحابُّوا) فيحصل نوع من الحب ولا يفرق بينه وبين ما كان لله وما كان عاطفة وشهوة والخِطبة ليست نهاية الزواج ولا يترتب على ذلك مسؤوليات فقد يفترقوا ولكن في الزواج إذا افترقوا وفق حدود وضوابط وحقوق معلومة بينهم إنتهت فتوة إبن تيمية رحمه الله وهي فتوة مقاصدية ؛ وأعني بالمقاصد تراعي المقصد من علاقة الشارع بالتحذير بين اختلاط الرجال بالنساء واختلاط النساء مع الرجال ، و الجهل هو الذي يولد كل الأخلاق الذميمة وهنا ضابط مهم جداً يقول إبن القيم : « وكل خلق محمود بين خلقين ذميمين فالكرم بين البخل والطيش والإسراف والتبذير »

إحدى أخواتكم سألت عن الإيثار ألا ينافي قوله تعالى (وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) (٢٦ الاسراء) (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا) (٦٧:الفرقان) طبعـًا هذا في المباحات في خاصة الإنسان أما الصدقات للناس

فهذه لا حد لها قال النبي صلى الله عليه وسلم لأسماء :(أنفِقي، أو انضَحِي، أوِ انفَحِي هكذا وهكذا، ولا تُوعِي فيُوعِيَ اللهُ عليكِ، ولا تُحصي فيُحصِيَ اللهُ عليكِ) لذلك جاء في الأثر أنك لو أنفقت مالك كله في سبيل الله ما كنت مبذراً ولا مسرفًا لما تنفق على نفسك أنفق عليها بتوسط أما المساكين والفقراء ؛ فانفق بغير حساب يعطيك الله بغير حساب وكن فيما عند الله أوثق مما في يدك قال صل الله عليه وسلم: (ما نقَصَ مالٌ من صدَقةٍ) .

قال إبن القيم: « ملاك الأخلاق الذميمة أمران : إفراط في الضعف وإفراط في القوة » ؛ الإفراط في الضعف يجعل الإنسان بخيلاً وجبانًا ومتردداً ، وأما الإفراط في القوة عدوان وملاك ذلك هذه الأمور .

إن أخطر ما يقف ضد الأخلاق الطبع ؛ أي يقول لك طبعي هكذا ولا أستطيع أن أغيره ، وأهم شيء أن يخرج الإنسان من طبعه وهذه قاعدة ذهبية في تعاملك بالإحسان مع الخلق لا ترى نفسك عليهم متفضلاً إنما الفضل بعد الله لهم يعني الآن أدرسكم من هو صاحب الفضل على الآخر ؟ أنتم أصحاب الفضل بعد الله

عز وجل وإن كان في الظاهر أن المعلم هو صاحب الفضل قال إبن قدامة: « من جلس إليك تعلمه صاحب فضل عليك لأنه أعطاك عقله وقلبه وأعطاك أرضًا تغرس فيها غرسًا » فكيف تكون صاحب فضل عليه وهو قد أعطاك أغلى ما عنده فكره وقلبه وسمعه وعقله ؟ بمعني أن الطبيب الذي درس في جامعات الأمة عليه أن يتعامل مع المريض بأن المريض عليه صاحب فضل وحق وليس أن الطبيب عليه متفضل وقس على ذلك في كل المجالات إذا أعطاك الله علما فأنت لست صاحب فضل إنما أعطاك الله العلم لتعلمه الناس فكيف إذا سلبه الله عنك ؟ أقول لنفسي هذه القلوب ليست ملك لأحد وإذا تعاليت عليها غداً يصرفها رب العباد عنك فلا تجد من يسلم عليك أقول لنفسي ذلك تربيةً لها يعني أنت أصبحت ملك للناس ولست ملكًا لنفسك ولا أهلك مع التوازن في أداء الحقوق فإن لنفسك عليك حقًا وإن لأهلك عليك حقًا وإن لربك عليك حقًا فاعط كل ذي حق حقه ، لكن هذه النظرة الصحيحة أن نتعامل مع الآخرين ليس باعتبارهم أصحاب طلب وحاجة ونحن أصحاب الحق ولنا عليهم فضل بل نتعامل معهم أنهم أصحاب الحق علينا ولذلك هذا التعامل يكسر الطبع ؛ يقول إبن القيم : « طبع الناس الشرع

لا يود أن يقلعه من جذوره من القلب ولكن يود الشرع أن يهذبه » و كيف يهذب العبد طبعه ؟ قال إبن القيم :« إذا كانت فيه شدة فليجعلها على أعداء الله والمنافقين وإذا كان فيه حب للتعالي والتفاخر يجعل هذا في مواطن الحرب » قال النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي دجانة : (إن هذه مشية يُبْغِضُهَا الله إلا في هذا الموطن) لكنه أمام الصحابة وأهل الخير ما كان يتكبر ولكن أمام المشركين تخويفا لهم ونصرة للدين ، ولذلك هذا من أرفع المعالجات ثم الرياضات النافعة رياضة القلب ؛ وذلك أن يحتمل الإنسان الأذى وأن يجهاد وأن يصبر وعند الشدة أن يتذكر الله فكلما تذكر الله بردت حرارته وهدأ ثورانه وسكنت خواطره لأنه تذكر الله فهذه من الرياضات النافعة وأيضـًا كثرة الصلاة والصيام بصدق مع الله يجعل القلب رقيق والإنسان في تعامله مع الناس رفيع ورفيق و في المعالجات لابد من القاعدة التي يقول فيها النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّما العِلمُ بالتَّعلُّمِ، والحِلمُ بالتحلّمُ) الحلم نوع من الأخلاق بالبتحلم أن يحمل الإنسان نفسه بمعنى إذا أردت خلق نبيل فاخطُ نحو الخلق خطوة سيوفقك الله خطوات أنت تريد أن تكون من أهل الإيثار عليك بترويض نفسك ، وأما الحلم بالتحلم والعلم بالتعلم والصبر بالتصبر يعني

الأخلاق الفاضلة يسعى الإنسان إليها عبر خطوات عملية يخطوها نحو هذه الأخلاق أهم شيء عقد النية ابتداءً وعزم النفس أن تكون من أصحاب الأخلاق الفاضلة والقيم الحية النبيلة والله عز وجل سيجعلك منهم إن شاء الله .

من المعالجات أن الذي لا يعامل الله بالحسنى والتقوى لا يعامل الخلق بالأخلاق الفاضلة فكيف أنت مع الله ؟ وكلما كنت أشد تعظيماً لله كلما كنت أكثر احتقاراً لنفسك حتى أمام الناس وهذا من التواضع خاصة أمام المؤمنين والمسلمين كما قال تعالى (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الشعراء: ٢١٥) هذه القضايا في مسائل الأخلاق كان لابد من أن تضبط وأن ننبه إليها وأخيراً الذي أود أن أقوله علينا أن نتعود من القرآن التماس الأعذار في التعامل مع الناس والخلق فمتى رأيت نفسك أحسن من الخلق فلن تكون صاحب خُلق لأن البعض عندهم طاعة تصيبهم بالغرور فيدفعه للوقوع في ذنب أكبر من ذنوب وآثام الذين يحتقرهم وهو الكبر والعجب بالعمل والغرور مثل ذو الخويصرة التيمي رأس الخوراج الذي أتى إلى رسول الله وقال له :(عدِل يا محمَّدُ فإنَّكَ لم تعدِلْ) وكان عابداً زاهدً ولكن

ما الذي دفعه لهذا ؟ قال إبن القيم : فإن بعض الناس يتألي على الله لما أذنب رجل في بني إسرائيل قال أحد الطائعين (واللهِ لا يغفرُ اللهُ لفلانٍ) قال الله سبحانه وتعالى : (من الَّذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفرُ لفلانٍ ؟ فإنِّي قد غفرتُ لفلانٍ وأحبطتُ عملَك – أو كما قال) لأنه تألى على الله والتألي على الله نوع من أنواع الأوامر والاقسام والترفع واحتقار الآخرين قال إبن القيم « أنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين » أنين المذنبين مع الذنب يكون أفضل من زجل المسبحين ، ولذلك هذا مربط الفرس في التعامل مع خلق الله .

اسأل الله أن يتقبل وأن يعين ويوفق .

أعظم قضيـة

هذا المجلس الأخير من مجالس التزكية فضلت أن أتحدث فيه عن أعظم قضية في التزكية ، وهي قضية الإيمان باليوم الآخر وذلك لأن القرآن من تأمله وقرأه يجده يُكثر من ذكر القيامة والآخرة وذلك لأن القيامة والآخرة قضية كبرى ، فالإماتة والإحياء و الحشر و البعث والجنة و النار و حياة البرزخ كل هذه القضايا كبرى لو تأمل الإنسان بشيء من التروي والمفهوم المستبصر في قضية الآخرة يجد أنه سيبعث الله الأولين والآخرين وهؤلاء الأولون والآخرون أمم كثيرة وجماعات لا تحصى كما قال تعالى : (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا)

(٣:الفرقان) أمم كثيرة بعضها ذهب وتحلل حتى الحيوانات سوف تبعث يوم القيامة بما فيها الحيوانات التي نأكلها ، أود أن نتداول قضية اليوم الآخر بعمق في قضية كبرى تحتاج ليس إلى مجرد إيمان بل تحتاج إلى يقين ، ثم إن معظم إشكالات النفوس الموجودة اليوم في عصرنا من طغيان الشهوات والتعلق بالماديات ؛ فالحديث عن الآخرة يعالج القلوب ويحرك النفوس نحو المعالي وهذا أقوى أنواع التزكية والتربية فحديث الآخرة يزكي النفوس ويطهرها قضية الدار الآخرة تعالج قضية الشهوات ثم ينبغي أن نقول شيء المفهوم اليقيني وصحة التصور الصحيح للآخرة يجعل المسلم قويم السلوك لارتباطه بالمعاد والجزاء وهذا أيضًا من أقوى أنواع التزكية ، فالإنسان لما يعلم أنه محاسب وأنه مجزي وأنه إما يدخل الجنة وإما يدخل النار إذاً كانت هذه مهيمنه على فكره وقد ملء تصورات الإنسان المسلم وحازت عليه ينضبط في سلوكه ويستقيم في معاملاته ولذلك ما تجرأ من تجرأ على العصيان إلا بعد أن غابت الآخرة عن ذهنه كما قال تعالى : (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) (٥ : القيامة)

يفجر أمامه الفجور بجرأة والسبب تردده وشكه (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ)

(٦ : القيامة)

فشكه في يوم القيامة جعله في سلوكه غير منضبط في تصرفاته إباحي متى وضع الإنسان الآخرة خافت نفسه وقلت شهواته وانردعت إراداته وانضبط سلوكه وتصحح مساره ؛ لأنه يعلم أنه متى خرجت روحه يلقى الله فيجازيه ويحاسبه فهذا هو التصور الصحيح للآخرة هو الذي يضبط سلوك المسلم ويجعله قويماً ؛ هل هذا التردد والشك موجود ؟ قد يقول بعض القائلين « ناراً مضمونة ولا جنة مجهجة » هذا عين المترددين في أمر الآخرة ؛ والحق يقال أن الجنة ليست « مجهجة » ولكن القائمين بهذا الكلام هم «المجهجهون» قال تعالى : (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) (٦١ : مريم) أي لاشك فيها لذلك تجدهم يعبثون مع العابثين وينحرفون مع المنحرفين في ميدان الضلالة يتيهون وفي أودية الشهوات يترددون بعيدة أذهانهم وبعيد يقينهم عن الآخرة وهذا من أعظم

الإشكالات عصرنا الذي نعايشه لايوجد مفهوم يقيني وهو أن تستيقن أن الآخرة قريبة وأن تنظر إليها بعين نظر الإعتبار وهنا أسأل سؤالين

ما هي ثمرات الإيمان لليوم الآخر ؟

أولاً : يثمر التعريف بالله وعظمته الذي يحي ويميت ويحاسب وحكمته البالغة في أنه جعل للناس معاد يرجعون فيه إليه سبحان الله الخلائق جميعا أولهم واخرهم وانسهم وجنهم يحاسبهم ربي رب العباد يقول تعالى : (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ) (٨٨ : الشعراء) هذا الحساب يلقي في نفس المسلم عظمة الله هذه القضية قضية الآخرة قضية ليست عادية وأخذت حيز كبير من القران لذلك قال الله : (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) (٦٢ :الأنعام) يعني حتى في محاسبتهم سبحانه يحاسبهم جميعًا وبسرعة ولا يظلم عنده أحد .

ثانيـًا : من ثمرات الإيمان باليوم الآخر تسلية المؤمنين إذا أصابهم العنت في دنياهم بأنهم يرجعون إلى الله فإذا أصابك البلاء كان للبلاء فائدة كما قال إبن رجب رحمه الله : (من أصابه البلاء أصابه الله به حتى حتى يشتاق إلى الجنة) إذ أنها هي الدار السالمة من الآفات الخالية من المكدرات والمشاكل والمنقصات لذلك تأملوا وانظروا واعرفوا هذه المسألة هي من الإيمان إبن القيم يقول : (الزواج بين الرجل والمرأة من أهداف الآخرة ما لا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق ولذلك حتى يشتاق إلى الجنة لا ينصرف عنها حتى يتطلعوا إلى الجنة لا أن ينصرفوا عنها لذلك تسلي المؤمنين).

ثالثـًا : من ثمرات الإيمان التأثير على السلوك صحة واستقامة فمن جعل الآخرة همه أكثر من الطاعات ومن خاف المعاد أقلع من المعصية ما الذي يدفعك أن تقلع من المعصية ؟ خشية أن يحاسبك الله بذلك ؛ هذه هى ثمرات الإيمان باليوم الآخر ولابد من التعامل معه بأنه قريب هذه أهم شئ في وجدان المؤمن والآن أجيالنا أتكلم معاكم بصراحة ، تتعامل مع الجنة والنار بعيداً عن دائرة اهتماماتها ونود أن

نعيد إلى أذهاننا البعث والنشور والقبر والصراط والميزان والأهوال والجنة والنار إلى دائرة إهتماماتنا و للأسف لا تجد من يحدثك عن الجنة والنار أو القبر أو الصراط أو الحشر إلا من رحم الله ، لا تجد من يشير إليك بأمر الآخرة التي هي أقوى في تربية النفوس وتزكية الأفئدة وتطهيرها من الدنس فإن إبن القيم يقول : (البصيرة في الوعد والوعيد عند صاحبها كأن سوق الجنة قد قامت وكأن النار قد نصبت وكان الصراط قد نصب على بطن جهنم فهو في كل يوم من أيامه يراها أمام عينه فتحرق الشهوات التي في قلبه)

وعقيدة أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان موجوداتان لا تفنيان ، نود أن نتعمق بتزكية نفوسنا في المفهوم اليقيني للآخرة تأملوا أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (ركعتا الفجرِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها) قال خير من الدنيا تأملوا في المفهوم خير من الدنيا وما فيها ما الذي في الدنيا ؟ فيها أسواق الذهب وفيها الأسواق المركزية لكل الدول والحكومات وفيها الدولارات وفيها النفط كل هذا الركعتان خير منه ، هل عندما نصلي هاتين الركعتين نكون على يقين بهذا الحديث

وبحقائقه ومعانيه ؟ هل نحن ممن يسبر أغوار هذا الحديث ويدرك كنهه ويقف على حقائقه ؟ نحن بحاجة إلى أن نقف مع الآخرة بمفهوم يقيني الإنسان إذا مات وحمل على الرقاب وهذا كائن في يوم من الأيام ويحمل إلى مثواه ولكن ليس مثواه الأخير يعني كما يقول الناس إنما هي حياة البرزخ وحياة البرزخ هذه حياة كبيرة جداً الدنيا كلها لا تساوي بالنسبة لحياة البرزخ شيء وهذه حياة القبر ؛ لذلك السلف عندهم بصيرة قال الشافعي :

تا الله لو عاش الفتى في عمره *** ألفًا من الأعوام مالك أمره

متـــــلذذاً فيــها بكل نعيــــم *** متنعمًا فيها بنعمى عصره

ما كان ذلك كلـــــه في أن يفي *** بمبيت أول ليلة في قبره

هناك يقينيات يجب أن نؤمن بها نؤمن بأن الله سيبعث الله الأولين والآخرين والبهائم جميعا يحشرهم في صعيد واحد ولكن هذه الأرض لا تحملهم كما قال تعالى : (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

(٤٨ : إبراهيم) في ذاك اليوم الصراط جسر على جهنم أدق من الشعرة وأحد من السيف تمر عليه أمم الأولين والآخرين ولا ينقطع أنا أؤمن بهذا وأستيقن به و روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أُمِرَ بعبدٍ من عِبادِ اللهِ أنْ يُضْرَبَ في قبرِهِ مِائَةَ جَلْدَةٍ أُمِرَ بعبدٍ من عِبادِ اللهِ أنْ يُضْرَبَ في قبرِهِ مِائَةَ جَلْدَةٍ ، فلمْ يَزَلْ يَسْأَلُ و يَدْعُو حتى صارَتْ جَلْدَةً واحدةً ، فَامْتَلأَ قَبْرُهُ عليهِ نارًا ، فلمَّا ارْتَفَعَ عنهُ و أفاقَ قال : على ما جَلَدْتُمُونِي ؟ قالوا :إِنَّكَ صَلَّيْتَ صَلاةً بغيرِ طُهورٍ ، و مَرَرْتَ على مَظْلومٍ فلمْ تَنْصُرْهُ) فلنحاول أن نعيش حياة البرزخ والقبر والآخرة فننظر إلى الدنيا كأنها لا تساوي شيء يوم القيامة لا تنفع الشهادات الجامعية ولا المكانة الإجتماعية ولا الثروات المالية الباهظة الطائلة يوم القيامة هو اليوم الذي يقضي الله فيه بين العباد (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) (١١١ : طه) أحببت أن أعطيكم معالم واضحة وملامح بينة في طريقكم إلى الآخرة أن تتعاملوا مع هذه المسألة بيقينيات وأن تقدروا الأمر قدره ، وأن تنزلوها منزلتها الموت والقبر والحشر والناس يقفون أمام الله عز وجل يوم القيامة يوم واحد يوم التغابن (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

(٢٨١ : البقرة) هو يوم ولكن مقداره من الدنيا ألف سنة الألف سنك كل الخلق وقوف وفيها يحاسب الله العباد ويقضي بينهم والناس وقوف حتى يطول الوقوف يقول النبي صلى الله عليه وسلم :(إنَّ الرَّجلَ ليُلجِمُه العرقُ يومَ القيامةِ : يا ربِّ أرِحْني ولو إلى النَّارِ) حتى إن عيسى بن مريم يقول: (لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتني) القيامة شيء كبير فيه حساب وفيه حشر وفيه صراط وفيه ميزان توضع فيه الأعمال ، أقول متى يستقيم الإنسان وتصح تزكيته ويستقيم إلى الله عمله اذا كانت الآخرة تملأ وجدانه وتسيطر عليه .

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : (كنت مع أبي يومًا من الأيام في المنزل، فدق داق الباب. قال لي: اخرج فانظر من بالباب؟ فخرجت فإذا امرأة. قال: قالت لي: استأذن لي على أبي عبد الله، يعني أباه. قال: فاستأذنته. فقال: أدخلها. قال: فدخلت فجلست فسلمت عليه. وقالت له: يا أبا عبد الله، أنا امرأة أغزل بالليل في السراج، فربما طفىء السراج، فأغزل في القمر، فعلي أن أبين غزل القمر، من غزل السراج؟ قال: فقال لها: إن كان عندك بينهما فرق فعليك أن تبيني ذلك. قال: قالت له: يا أبا

عبد الله، أنين المريض شكوى؟ قال: أرجو أن لا يكون شكوى، ولكنه اشتكاء إلى الله. قال: فودعته وخرجت. قال: فقال لي: يا بني ما سمعت قط إنسانًا سأل عن مثل هذا، اتبع هذه المرأة فانظر أين تدخل؟ قال: فاتبعها فإذا قد دخلت إلى بشر بن الحارث، واذا هي أخته. قال: فرجعت فقلت له. فقال: محال أن تكون مثل هذه إلا أخت بشر). وهذا هو الخوف من الله واستشعار الآخرة كما قال تعالى : (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) (٤ : المطففين) .

الآخرة أكبر من تصوراتنا وأعظم من خيالاتنا وأكبر من أحلامنا وآمالنا التي نعيشها في دنيانا ورد في حديث الإمام أحمد في المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لو أنَّ ما يُقِلُّ ظفرٌ مما في الجنةِ بدَا لتزخرفتْ لهُ خوافقُ السمواتِ والأرضِ ولو أنَّ رجلًا من أهلِ الجنةِ اطَّلعَ فبدت أساورُهُ لطمسَ ضوءُهُ ضوءَ الشمسِ كما تطمسُ الشمسُ ضوءَ النجومِ) ويقول صلى الله عليه وسلم : (قابُ قَوْسِ أحدِكم خَيْرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها، ولو أنَّ امْرأةً مِن أهلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إلى الدُّنيا، لَمَلأتْ ما بينَهما رِيحَ المِسْكِ، ولَطُيِّبَ ما بينَهما، ولَنَصيفُها على رَأْسِها خَيْرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها)

لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والله حديث عجيب ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها.

يقول ابن القيم في " الكافية الشافية "

هي جنة طابت وطاب نعيمــها *** فنعيمها باق وليس بفان

دار السلام وجنة المأوى ومنـ *** ـزل عسكر الإيمان والقرآن

فالدار دار سلامة وخطـــابهم *** فيها سلام واسم ذي الغفران

ويقول في صفة عرائس الجنة :

فيرى محاسن وجهه في وجهها *** وترى محاسنها به بعيان

حمــر الخـــدود ثغورهن لآلئ *** سود العيون فواتر الأجفان

والبرق يبدو حين يبسم ثغـرها *** فيضيء سقف القصر بالجدران

ولــقد روينا أن بـــرقا ساطـعا *** يبدو فيسأل عنه من بجنان

والله الحديث عن الآخرة يطول ولكني أردته في صياغ الحديث عن تربية النفوس وتزكيتها ، فأسأل الله تعالى القبول والعون والسداد وأن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة وأن يرزقنا وإياكم الفردوس الأعلى إنه نعم المولى ونعم النصير وصلى اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس الموضوعات